الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والجزر والروم والصقالبة شمالاً، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب. وهى أوطان كثيرة، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد.

ومن أهم الأسباب التي هيأت لذلك نزول القبائل العربية في الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها في السكنى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماء، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجواري من كل جنس: سنديات وحبشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات ورومياات وصقلبيات، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد نادراً، فالكثرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجواري والإماء، وكذلك الشأن في الخفاء أنفسهم على نحو منا أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

وكان وراء هذا المزج الدموي بين العنصر العربي والعناصر الأجنبية مزج روحي عن طريق الولاء الذي شرعه الإسلام والذي اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولاء، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير

دعوة واسعة، وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير، وكان كثير منهم حين يحررون يجدون ويعتلون المناصب الكبرى في الدولة.

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذي كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة، وقد دخلت كثرتهم في الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفل للناس من عدل ومساواة، وحقاً تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه، بل لقد فسحوا للفرس كي يغلبوا على العرب في تصريف شئون الدولة. وحتى من لم يسلم من الموالى. من المجوس والصائبة والنصارى أخذ يندمج في المحيط العربي بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية. وبذلك فتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق – على مصاريعها – في جميع شئون الحياة، وحقاً دخل جمهورهم الضخم في الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف.

وبذلك استطاع الإسلام – بتعاليمه السمحة – أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة العربية، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انبسط عليها سلطانه تسلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة.

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي لا بين المسلمين وحدهم، بل أيضاً بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لا في البيئات التي كانت قد أخذت تستعرب في العصر الجاهلي: بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب، بل أيضاً في البيئات النائية: في إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل، فإذا هي تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية في الأندلس.

وكان سكان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة، ففي إيران كانوا يمتلكون الفهلوية، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية، وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الخيرة ولغات سامية مختلفة، وفى مصر كانوا يتكلمون القبطية وفى بلاد المغرب

كانوا يتكلمون البربرية، وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع - منذ غزو الإسكندر - في الأوساط الثقافية بالشرق كله: في إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر، بينما كانت اللاتينية تشيع في تلك الأوساط بشمالي إفريقية والأندلس.

ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة. وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام، وكان تعربها جميعاً قد بدأ في الجاهلية، فأتمته الفتوح العربية سريعاً، فإذا اللغات السامية التي كانت تنتشر في تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصائبة في حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور. وتتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجياً.

وقد أقبل الفرس على التعرف إقبالاً منقطع النظير، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم وجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألف فيها نجم أبي حنيفة وتلاميذه، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس.

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً، فقد ظلتا من ذلك بقايا حتى في أكثر البيئات تعرباً أي في العراق والشام، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية[1] ولعل أهم لغة قديمة ظلت حية هي الفارسية، لا بين سكان إيران فحسب،

---

١ انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥/ ١٧٦ وقد اشتهر في أواخر عصر بنى أمية شاعر عربي بكثرة ما كان يدخل في أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح: انظر الموشح للمرزباني ص ٢٠٨.

بل أيضاً بين سكان الأمصار في العراق، إذ زحفت إليها منذ عصر بنى أمية جموع كبيرة منهم، وازداد زحفهم في هذا العصر الذي علا فيه سلطانهم يدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاص من قصاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسواري إذ يقول: "كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى بأي لسان هو أبين"[1]. وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها، حتى لنراها تدور في مجالسهم[2]، وحتى لنرى الأصمعي العربي القح يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس[3]. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس ودخل العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والببغاء والفلفل، كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج.

ولم تفسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتى على هامشها، وكثيراً ما كانت تعرب بحيث تتفق واللسان العربي، وقد ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفاً بها. ولم يكونوا يعمدون دائماً إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التي لم يكونوا يعرفونها، بل كانوا يحاولون في أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة. وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية.

وحقاً أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن حتى لكأنهم كانوا

---

١ البيان والتبيين ١/ ٣٦٨

٢ أغاني (طبعة الساسي) ١٧/ ١٩

٣ أغاني (طبع دار الكتب) ٥/ ٧.

يعدون اللحن إحدى الكبائر، وقد مضوا يسجلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحياناً من بعض اللحن. وجمع من ذلك "يوهان فك" في كتابه "العربية" مادة واسعة، ومن ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشياً في أوساط المثقفين بل كان محدوداً جداً، إذ مبلغ ما يضاف إلى أي شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا في النادر. وقد وقف يوهان فك طويلاً عندما ساقه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" من لكنات بعض الأعاجم، وهى لكنات مردها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة في التكيف العضوي لمخارج الحروف العربية التي لا توجد في لغاتهم، إذ كان منهم من يبدل الراء غيناً والزاي والتاء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زاياً أو ذالاً والحاء هاء والصاد سيناً والظاء زاياً واللام ياء. وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شئ إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى، وهذا نفسه يلاحظ في اللحن فإنه إنما كان يشيع في أوساط العامة، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب، وفى ذلك ألف الكسائي كتابه في لحن العامة وهو مطبوع.

وزعما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المصل الأعلى للناس في هذا العصر، وخاصة الطبقة المثقفة، وكان أهم دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها. وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا في الأوساط الثقافية والأدبية فحسب، بل أيضاً في أوساط العامة وبين العناصر التي لم تدخل في الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات في البيئات التي ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتنوح اسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند، وقد عنى بنشر الثقافة الإغريقية في كل البلدان التي افتتحها ومضى خلفاؤه الذين ورثوا ملكه يستنون بعمله. وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة. وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانيته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية، وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة في الإسكندرية

وقيسارية وإنطاكية والرها ونصيبين وحران وجنديسابور، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة، منها الترجمة ونقل علوم الأوائل وسنعرض لذلك في موضع آخر. ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه في إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة. ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامي، فاضطرمت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصائبة والنصارى واليهود وغيرهم، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم. وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام، فقد تحولوا إليه بتراثهم العقيدي، بل بكل تراث آبائهم الثقافي.

ولا نبالغ إذ قلنا أن كل ألوان الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعي وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً، فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظم لها النقل والترجمة، وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية. وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين: طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندمجوا في عرب العراق، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية، ومنهم براهمة[1] ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشيء سوى الدهر وسمنية لا يؤمنون بشيء سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهم[1] ابن صفوان، وظل المعتزلة – على نحو ما يصورهم الجاحظ في كتابه الحيوان – يردون عليهم رداً عنيفاً[2]، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتنق عقيدة السمنية[3]. وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيروني: "كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد

---

١ انظر في نحل الهند الشهرستاني ص ٤٤٤ وما بعدها.

٢ المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١.

٣ انظر مثلاً الحيوان ٤/ ٧٠ وما بعدها.

من جملتها"[1] إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال، وما تزال تطلبه حتى تستوفى شرف ذاتها وتستغني عن الاتصال بالأبدان، وحينئذ يتحد العقل والعاقل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً. وقد سقطت هذه العقيدة - كما مر بنا في غير هذا الموضع - إلى ماني والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهي في الأئمة، وأيضاً فإنها سقطت في هذا العصر إلى الخرمية، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً[2]. وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد. وقد تأثرت المانوية - على نحو ما أشرنا في الفصل السابق - بزهد البوذيين وطرقهم في النسك وتحريمهم لذبح الحيوان.

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً في المحيط العربي لهذا العصر، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا، ويحكون عنهم أقاصيص عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم. وكانت المجوسية لا تزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنوية أو إيمان بأن للعالم إلهين: إلهاً للنور وإلهاً للظلم. ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنوياً مانوياً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس. وكان تأثير المزدكية في المجتمع أشد عمقاً، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقي والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع في إباحية مسرفة.

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في أسواق النخاسة، وكان تأثيره في المجال العربي محدوداً، وحقاً أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العباسي، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب، وأيضاً عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التي كانت سائدة في المنطقة والتي حملت في أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشآميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من

---

١ أغاني (طبع دار الكتب) ٣/ ١٤٧

٢ الشهرستاني ص ٤٢.

أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجرى في كل ذلك من إيمان بالغيبيات ومن نزعات روحية عميقة.

وكان يشارك في الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ويصور لنا الجاحظ في رسالته "الرد[1] على النصارى" موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيهم في يثرب. على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدوا إليهم يد البر والعون. ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين في حياة الخلفاء والرعية، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة، فمن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة، أما اليهود فمنهم الصباغون والدباغون والقصابون والشعابون، وقد رسخ في ذهن العرب أنهم أقذر الأمم. ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التي دخلت في تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، وقد استغلها القصاص في وعظهم للعامة استغلالاً واسعاً، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه، فمضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدماً بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد اغلله بن سبأ، وقد لعب دوراً واسعاً في فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة في الإسلام، حتى إذا حدثت أخذ يلقى في روع بعض الضعفاء والعوام أن على بن أبي طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلت فيه، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود. وبذلك وضع نواة التشيع الباطن، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجهم وجادلهم المعتزلة في هذا العصر. وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم من يخالطون العرب في مجالسهم[2] ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية[3]، حتى ليصبح هناك

---

١ انظر هذه الرسالة في ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل.

٢ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩

٣ انظر الشهرستاني ص ٦٤ – ٦٥، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه في اليهود طباع حتى قالوا في الله: اشتكت عيناه فعادته

قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم. وقد عنى المعتزلة طويلاً بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً. وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفراً منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق[1]. وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي أنه كان من رءوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسي المتكلم، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن[2] ومازال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء. وهو بلاء جر إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد في العصر العباسي الأول.

وقد شكا الجاحظ – على نحو ما مر بنا في الفصل السابق – من متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديصانية والمرقيونة المارقة، مما أفسدوا به عقول العوام، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه، وكان المسلمون يبرونهم ويعاملونهم معاملة كريمة، وقد دخل منهم جمهور غفير في الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريهم مما هيأ للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية في المجتمع العباسي، ولا نقصد اللقاح الدموي فحسب، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافي، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات، وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذي ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرع بالجسد الجسماني وأنها الكلمة القديمة المجسدة[3].

وكان للأناجيل تأثير – من بعض الوجوه – فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله في وعظهم، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك

(فزارته) الملائكة.

١ انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٣٣٤

٢ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٨ وقارن ب ٢/ ١٨٧.

٣ الشهرستاني ص ٤٢.

مادة وافرة، وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبثين في العالم الإسلامي من أثر عام في زهد الزهاد حينئذ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك. وأشرنا أيضاً في غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة. ومما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا في النصارى لهذا العصر اندماجاً واسعاً، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمناً ورضاً دون أي عسف أو ظلم.

obeikandl.com

٢

الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة في نفس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصوله، وحتى أخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة، وقد مضوا في هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم في الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتاب وبعض سور القرآن الكريم وشيئاً من السحاب وبعض الشعار والأمثال[١]، وكان بعض معلمي هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضاً السنين والفرائض والنحو والعروض[٢]. وكانوا يؤثرون في تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة النور[٣]، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمي الكتاتيب[٤] من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمي المقرئ وأبي صالح الإخباري. وخص الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم[٥]، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتاب بين الشخصيات المضحكة في الأدب العربي، وممن كثر التنديد عليه في هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوي الذي كان يتقعر في كلامه مكثراً فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى في مكتبه بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات في خلافة المنصور[٦] وقد ألف بعض الأدباء

---

١ البيان والتبيين ٢/ ١٨٠

٢ البيان والتبيين ٢/ ٢١٩.

٣ البيان والتبيين ١/ ١٨١

٤ انظر البيان والتبيين ١/ ٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد)ص ٢٧١.

٥ انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد.

٦ المعارف ص ٢٧٢.

برسالة تجمع نوادره[1].

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه وأثبتوا مكانه درساً آخر. وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفى أخبار إبراهيم الموصلي أنه "أسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئاً، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا يشجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء"[2] ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسناً كان يدع الكتاب ويلعب بالكلاب، فكتب أبوه إلى معلمه[3]:

ترك الصلاة لا كلب يلهو بها ... طلب الهواش مع الغواة الرجس

فإذا خلوت فعضه بملامة ... أو عظة موعظة الأديب الأكيس

وإذا هممت بضربه فبدرة ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس

وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة، لا تتجاوز أحياناً بعض رغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت.

وكان بجانب معلمي أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، كان منهم اللغوي والإخباري والفقيه والمحدث والمقرئ، وكانوا أحسن حالاً من معلمي أبناء العامة، على أن الجاحظ يقول في جمهورهم: "يكون الرجل نحوياً عروضياً وقساماً فرضياً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن رواية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً"[4]. وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسي والقواد والسراة فقد كانت تفرض لهم رواتب كبيرة، جعلتهم يعيشون في خفض من العيش وسعة من الرزق، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدى وله اختار مجموعته الشعرية

---

١ الفهرست لابن النديم ص ٤٣٥.

٢ أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ١٥٧.

٣ الحيوان ٢/ ٨٤ وانظر عيون الأخبار ٢/ ١٦٧.

٤ البيان والتبيين ١/ ٤٠٣

الملقبة بالمفضليات، والكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبي دلف العجلي قائد المأمون المشهور، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويقال إنه أعطاه يوماً ثلاثمائة ألف درهم[1]، ومنهم اليزيدي يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميري خال المهدي ومن أجل ذلك لقب باليزيدي، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون.

وامتازت في هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المربد، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمريناً لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفاة من شوائب العجمة. وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء العراء[2]. وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعها الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار[3].

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة، يكتبون ما يلقونه أو يملونه، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة في المسجد، ثم يأخذ في إلقاء محاضرته أو إملائها، وفى الحلقات الكبيرة كان يردد مستمل كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه في الحلقة. وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته الخاصة، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوي وحلقة لنحوي وحلقة لمتكلم، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل. وكان يتحلق كثيرون في حلقات اللغويين والنحاة، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابي الكوفي زهاء مائة

---

١ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (نشر الخانجي) ص ١٤٧.

٢ الحيوان ٦/ ٢٣٩

٣ أغاني (طبع دار الكتب) ٣/ ١٥٠.

شخص[1]، وكثيراً ما كانت تدور في تلك الحلقات هي الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يروى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائي في حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة[2]. وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم[3].

وهذه الحلقات الكثيرة التي لم يكن يشترط للحضور فيها أي شرط سوى الرغبة في السماع والتي كانت مباحة لأي رواد كي يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين، أما أولادهما فكثرة العلماء المتخصصين في كل علم وفن، حتى ليروى أن النضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوي ولغوي وعروضي وإخباري[4]، ولابد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه. وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة.

وتلك هي الظاهرة الأولى، أما الظاهرة الثانية فهي نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنويعاً واسعاً، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً في كل صور المعرفة والثقافة. وكان يطلق على هذه الطائفة في البصرة اسم المسجديين، وكان لهم حلقات خاصة بهم في المساجد، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار في أي شئ يعن لهم، وقد عرض الجاحظ في كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال[5]. وكانت لهم سوق نافقة في مجالسة الخلفاء والوزراء وعلية القوم، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويروحوا عنهم في ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف. ولعلنا لا

---

١ إنباه الرواة عن أنباء النحاة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/ ١٣٠.

٢ إنباه الرواة ٢/ ٣٧ ومعجم الأدباء ١١/ ٢٢٨.

٣ الموشح ص ٢٨٩.

٤ معجم الأدباء ١٩/ ٢٣٨.

٥ كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصري) ص ٢٤

نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به في المجتمع العباسي هو الذي جعل الجاحظ وغيره يحولون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة، بل لقد استقر في الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف.

وإذا كان الخلفاء ووزرائهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاياهم الجزيلة، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القواد، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدى فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة[1]، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم[2] وكان من المحظوظين لدى البرامكة، ويروى أن جعفراً البرمكي وصله بخمسمائة ألف[3]. وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين. وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم[4]. ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون ووالية على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفاً، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم في كل شهر[5].

وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد، إذ كان من يبزغ نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تسبغ عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً. وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف أو التجارة كأبي حنيفة وكان بزازاً، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجراً، بل لقد كان متجراً رابحاً.

وكان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق،

---

١ إنباه الرواة ٢/ ٣٤

٢ طبري ٦/ ٥٤١

٣ إنباه الرواة ٢/ ١٩٩ – ٢٠١.

٤ إنباه الرواة ٣/ ٣٤٩ وما بعدها.

٥ إنباه الرواة ٣/ ١٦ وما بعدها.

إذ أخذ يعم منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي. ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكي أن أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس. وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المنصفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ، فاتسعت صنعة الورق. وهى تحل في هذا العصر محل الطباعة في عصرنا الحديث، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها، فاتخذوا لأنفسهم وراقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس مثل دماذ أبي غسان وراق[1] أبي عبيدة، وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هي دار الحكمة وعنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة.

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر[2]، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكي ويقال إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ[3]، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدي المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب[4] وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً[5].

ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية للمعرفة، إذا كانت تسجل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء، وفى ذلك يقول الجاحظ: "وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ولا

---

١ الفهرست ص ٨١

٢ الحيوان ١/ ٦١

٣ الحيوان ١/ ٦٠

٤ معجم الأدباء ١٨/ ٢٨١

٥ الفهرست ص ١٤٤

obeikandl.com

يجعل قاضياً فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحري أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان"[1].

ولم تكن الكتب تعد لهذا التحصيل السريع في الفقه وحده، بل كانت تعد لذلك في جميع فروع العلم والمعرفة، فطبيعي أن يقبل عليها الناس إقبالاً شديداً لما تجمع لهم في كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة، بل لقد أصبحت الأداة الطيعة التي تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن "من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله"[2].

وأنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشترى منها فحسب، بل ليقرأ فيها ما لذ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها. وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موه بعضهم خطوطه بالذهب، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً[3] وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى في كتب الهزل والفكاهة[4].

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ، فقد هيأ لها أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسراة، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف، على نحو ما يروى من مناظرة الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي[5] وما يروى من مناظرة

---

١ الحيوان ١/ ٨٧.

٢ الحيوان ١/ ٥٥

٣ نفس المصدر والصفحة وما بعدها.

٤ الحيوان ١/ ٦١.

٥ مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٨٨.

obeikandi.com

الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي[1]. وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون في كل ما يعرض لهم من مسائل، وفى ذلك يقول المسعودى: "كان يحيى بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنص هي أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل منكم ما سنح له فيه وخطر بباله"[2] ويورد المسعودى أطرافاً من كلامهم وحوارهم في العشق تصور كيف كانوا يفرعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها في الموضوعات المختلفة التي كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة في الإمامة.

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل، فمضى يحول مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحيى بن أكثم: "أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم[3]" ويمضى ابن أكثم فيقول: إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلى المأمون أن أنوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس. ويعرض طيفور في كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة. ويصور المسعودى ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير، فيقول: "قرب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل العلاف وأبي إلإسحق وإبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله"[4].

---

١ إنباه الرواة ٢/ ٢٧١.

٢ مروج الذهب ٣/ ٢٨٦.

٣ بغداد لطيفور ص ٤٥

٤ مروج الذهب ٤/ ٢٤٥

وقد كفلت الحرية العقلية في هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أعبد غاية ممكنة، بحيث كان كل رأى يعرض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة[1]. ومما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً في جميع شئونه الروحية والاجتماعية، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين، وكل ذلك باعثه الحقيقي رقى الحياة العقلية في هذا العصر، فإذا كل شئ يناقش في حرية، وإذا كل شئ يعرض على بساط البحث والجدل.

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكي مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتناظرون، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شمر المتكلم، وكانت في أبي شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين في مسألة ناظرة فيها أن يحرك يديه وأن يحبو غليه حبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية[2]، ومن ذلك مجلس أزدي بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغاني: " كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزدي ويختصمون عنده"[3] ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر في نفس البلدة، فيقول: "كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يعرف مثلهم: الخليل بن أحمد صاحب العروض سني، والسيد ابن محمد الحميري الشاعر رافضي وصالح بن عبد القدوس ثنوي، وسفيان بن مجاشع صفري، وبشار بن برد خليع ماجن، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر اليهودي، وابن نظير النصراني متكلم، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسي، وابن سنان الحراني الشاعر صابئي، فتتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً"[4].

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقي أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة في المجالس، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التي تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلاً. وكانت هناك مجالس أخرى للمتفلسفة والمتكلمين، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه "كان أعمر

---

١ الحيوان ٤/ ٤٤٢

٢ البيان والتبيين ١/ ٩١

٣ أغاني (طبع دار الكتب) ٣/ ١٤٦

٤ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩.

مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب" وكان تلاميذه يقرءون عليه في هذا المجلس كتب المنطق لأرسطاطاليس وكتب جالينوس في الطب[1]. وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين[2] ابن إسحق، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً. وكانت لابن أبي دؤاد المعتزلي مستشار المأمون والمعتصم والواثق ندوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل[3].

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة في كل مكان بأمصار العراق وهى حقاً كانت مطروحة في الطرقات معرضة لكل الأيدي، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين، ولا مصاريف تطلب للتعليم، والتعليم مجاناً من حق الجميع. وكان لذلك آثار بعيدة، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة، ويكفى أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا في الشعب فبشار كان أبوه طياناً يضرب اللبن، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله،وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخزف والجرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعها للناس، وكان أبو مسلم حائكاً، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً، ومن وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة، وكذلك كان العلماء في جميع فروع العلم، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التمار وشعيب القلال الذي كان يصنع فعلاً القلال، وهما من المتكلمين.

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة، إذ لم يكن بينهم وبينها أي حجاب ولا أي حاجز، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها في المساجد ودكاكين الوراقين، فنهل كل ما نزع إليه من ينابيع المعرفة، ومن خير ما يصور ذلك أن نرى الجاحظ يقول: "وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة[4]" وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولابد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف، فهم

---

١ عيون الأنباء لابن أبي أصيبيعة (طبعة دار الفكر العربي بيروت) القسم الأول من الجزء الثاني ص ١٢٤ وابن القفطي في أخبار الحكماء (طبعة الخانكي) ص ٢٤٩.

٢ ابن أبي أصيبيعة ص ١٣٩

٣ الحيوان ٤/ ١٢٣

٤ الحيوان ٥/ ٣٠٤

يناصرون هذا المذهب أو ذاك، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوسط المثقفين فحسب، بل من العامة أيضاً، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه في الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول: "وفى سنة ٢٢٠ ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر، فتبعه خلق[١]". ونرى الجاحظ في رسالته "الرد على النصارى" ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين في آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضاً من الأدلة، يقول: "ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد". ويهمنا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظاً من طريقة المتكلمين في حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية.

وليس من شك في أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية في العصر، فقد تغلغلت المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة، وأصبحنا غذاء لجميع العقول والقلوب، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة، إذا استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة.

---

١ النجوم الزاهرة ٢/ ٣٣٤

obeikandl.com

٣

علوم الأوائل: نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فقيها من معارف وعلوم. وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين: طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين، إذ لا يعدو ما يذكر من أنه ترجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم[١] وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب في الطب لأهرن[٢] بن أعين وأن كتاباً في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية ترجم لهشام[٣] بن عبد الملك، وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة في جنديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحران والرها وأنطاكية والإسكندرية، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادي في ترجمة الآثار اليونانية، واستمر نشاطهم في هذه الترجمة محتدماً حتى القرن التاسع، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندري المعروف باسم يحيى النحوي وكان يعيش في القرن السادس الميلادي ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة في المنطق والطب والطبيعيات[٤].

---

١ ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ١/ ٣٢٨

٢ طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (نشر المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة) ص ٦١

٣ انظر صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو بالقاهرة) ص ٨١

٤ انظر ابن أبي أصيبعة في الجزء الثاني من القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لأوليري (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٣٧، ١٢٣.

ومن أبرزهم في العصر الأموي سويرس سيبوخت أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوي، وله مصنف منهم في النحو السرياني.

وكان لمن خلفوهم في العصر العباسي اليد الطولى في ترجمة المنصفات اليونانية من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية. وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة، ولعلها لذلك سبقت الكوفة في التعرف على الفلسفة اليونانية. وكان كثيراً من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية، فأدلى الفرس بدلوهم لا في نقل ثقافتهم فحسب، بل أيضاً في نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو، وقد نقل كليلة ودمنة الهندي الأصل إلى العربية، وفى ذلك إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلهم[1] وسنرى عما قليل أن قوماً من مستعربي الهند شاركوا في هذا النقل.

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية، يتقدمهم في ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى: "كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسي وأسلم على يديه – وهو أبو هؤلاء النوبختية – وإبراهيم الفزاري المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابي المنجم. وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند، وترجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرثماطيقي وكتاب أوقليدس[2].

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسي ويظهر أنه كان منجماً كبيراً، إذ ينسب له وضع الجداول[3] الفلكية، وكذلك كان صاحباه ولثانيهما وهو على بن عيسى رسالة في الإسطرلاب – وهو آلة فلكية لرصد الكواكب – وقد نشرها لويس شيخو. ولم يكتف المنصور بما

---

١ كانت مدينة بلخ أهم مركز إيراني امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية، وكان بها معبد النوبهار البوذي المشهور. انظر أوليري ص ١٤٩.

٢ المسعودي ٤/ ٢٤١

٣ علوم اليونان لأوليري ص ٢١١.

كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم، فقد نقل له كتاب السندهند الهندي وكتاب المجسطي اليوناني لبطليموس وهما في علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب. ومعنى ذلك أن العرب استمدوا في هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولابد أنهم استمدوا فيه أيضاً من الصابئة ورثة الكلدانيين في الفلك والتنجيم.

وصور نالينو أثر كتاب السندهند في علم الفلك العربي وكيف وصل إيل العرب ونقل إلى العربية فقال: "إن وفداً من الهند وفد على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (براهمسبهطسد هانت) ألّفه سنة ٦٢٨م أو ٦، ٧ هـ الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال. وتولى ذلك الفزاري وعمل منه زيجا[1] اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية.. واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سد هانت) ثم حرفوه قليلاً وسموه السندهند[2]".

ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندي يعقوب بن طارق وكان رياضياً ممتازاً وله مؤلفات قيمة في الفلك[3].

ويذكر المسعودى أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطي كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقي في الحساب وكتاب أقليدس وهو في علم الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها، وجميع تلك الكتب يونانية. ولم يذكر المسعودى عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية، ومعروف أنه استدعى في سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن يختيشوع كبير الأطباء في بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية

---

١ الزيج: علم الجداول الفلكية.

٢ انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩.

٣ نالينو ص ١٥٦ والفهرست ص ٣٨٨ وعلوم اليونان لأوليري ص ٢٠٩.

إلى العربية[1] وأغلب الظن أنها كانت في جمهورها كتب طبية. وكان جورجيس من السريان النساطرة، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب والترجمة. وممن لمع اسمهم لعهد المنصور في ترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عنى بنقل طائفة من كتب ابقراط وجالينوس[2].

وتنشط الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيباً نسطورياً من مدرسة جنديسابور، وفيه يقول ابن جلجل: "قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية، مما وجد بأنقرة وعمورية وببلاد الروم حين سباها المسلمون، ووضعه أمنيناً على الترجمة، ووضع له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه[3]. وقد عاش ابن ماسويه طويلاً إذ توفى سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الأدوية. وأسهم في الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تضاف إليه كتب مختلفة في الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق.

وللبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة حينئذ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتاباً عن الرومية، وقد ترجمه برسمه[4]، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم، بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطي لبطليموس، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه[5]. وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث

---

١ ابن أبي أصيبعة ص ٣٧ والقفطي ص ١٠٩.

٢ ابن أبي أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليري أنه ترجم لبطليموس كتاباً في التنجيم، انظر علوم اليونان ص ٤٢.

٣ ابن جلجل ص ٦٥ والقفطي ص ٢٤٩

٤ انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي.

٥ الفهرست ص ٣٧٤.

الفارسي ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك[1]، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون في حداثته بعض الكتب الفارسية ويعجب بترجمته[2]. ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن جهم البرمكي وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسروي وعمر بن الفرخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين[3]. ومن أنفس ما نقلوه أمثال بزرجمهر وعهد[4] أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان[5] خرد في صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة. وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ويقال إنه نظمه في أربعة عشر ألف بيت[6]، وأيضاً فإنه نقل إلى العشر العربي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان[7]. وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسي واليوناني دفعوا أيضاً إلى الانتفاع بالتراث الهندي وترجمته، يقول الجاحظ: "اجتلب يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباد وفلان وفلان" وقد عملوا في البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة في الطب والعقاقير[8] وشمل نقلهم صحيفة طويلة في قواعد البلاغة سجلها الجاحظ في بيانه[9]، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة في الخرافات والأسمار مما تولع به العامة[10].

---

١ الفهرست ص ٣٨٢.

٢ الجهشياري ص ٢٣٢.

٣ انظر في هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/ ٢٩.

٤ راجع في هذا الكتاب وسابقه ثلاث رسائل الجاحظ (نشر فنكل) ص ٤٥ وابن أبي أصيبعة ص ١٠٩.

٥ انظر جمع الجواهر للحصري ص ٧٤ وما بعدها.

٦ الجهشياري ص ٢١١

٧ الفهرست ص ٢٣٢

٨ الفهرست ص ٣٤٢، ٤٢١

٩ البيان والتبيين ١/ ٩٢

١٠ الفهرست ص ٤٢٤

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عهد المأمون، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجد في الترجمة، يقول ابن النديم: "لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله، فنقل، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم[1]" ويقول ابن نباته في ترجمته لسهل بن هرون: "جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد، فأرسلها إليه، واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هرون خازناً لها[2]".

ونحن نقف قليلاً عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس[3] وكتاب المجسطي لبطليموس[4]. وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطاليس مختصراً في النفس وكتبه في الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم[5] وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار، وهو نحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد في السياسة وفى الصحة والتغذية، وترجم أيضاً كتاب الترياق لجالينوس[6]. وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية،

---

١ الفهرست ص ٣٣٩

٢ سرح العيون لابن نباته (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦

٣ يقول ابن النديم ص ٣٧١: نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهاروني نسبة إلى هرون الرشيد والثاني بالمأموني نسبة إلى المأمون، انظر ابن أبي أصيبة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ ١/ ٨٠ والقفطي ص ٦٤

٤ علوم اليونان لأوليري ص ٢١٥

٥ تاريخ الفلسفة في الإسلامم لدى بور (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٢٢

٦ ابن جلجل ص ٦٧ وأوليري ص ٢١٧. والعلم عند العرب لألد ومبيلي (نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها.

obeikandl.com

إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقحان فيه، وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا، وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون في الترجمة حنين بن إسحق، وكان دقيقاً في ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسي الثاني. ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوي (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعي له أيضاً، وترجم كتاباً نسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندري المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية[١].

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبي منصور وألحق به طائفة من نابهي الفلكيين[٢] مثل على بن عيسى الإسطرلابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد الجوهري. ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكي مثل بنى موسى بن شاكر. وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التي سبقها إليها الهنود والفرس واليونان، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة[٣].

ومحمد بن موسى الخوارزمي هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد، وهو يعد بحث منشئ عصر جديد في التاريخ العالمي للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذي شاع من بعده في العالم كله، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة في أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية، يقول

---

١ انظر دي بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليري ص ٢١٧.

٢ راجع في الفلكيين لعهد المأمون الفهرست ص ٣٨٣

٣ انظر في بحوث هؤلاء الفلكيين ألدوميلي ص ١٤٨ وأوليري ص ٢٢٣.

ألدوميلي: "وله في هذا المجال أعظم تأثير، أولاً في الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك في الشعوبي الغربية المسيحية، وحسابه المفقود نصه العربي مع وجود ترجمة لاتينية له في القرن الثاني عشر الميلادي كان له أعظم الفضل في تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندي، وكتابه المشهور المختصر في حساب الجبر والمقابلة لم يؤد فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالي، بل إنه افتتح عصراً جديداً في الرياضيات.. وألف أيضاً كتباً في الهندسة، ووضع جداول خاصة بحساب المثلثات والسطوح الفلكية[1].

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه "الجبر والمقابلة" وهو يذكر في مقدمته تشجيع المأمون له منوهاً به. ويظهر أنه نجح في صنع الجداول الفلكية نجاحاً رائعاً، ويقول نالينو إنه "اصطنع زيجاً سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس، وجعل أساسه على السندهند، وخالفه في التعاديل والميل، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس[2]".

والخوارزمي – بدون ريب – يفتتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام. وقد نبغ في هذا العصر كثيرون في الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب في الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها. وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه – بما كان يعكف عليه من تشريح القردة[3] – أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلفه جالينوس في علم التشريح، وله في طب العيون رسالة مهمة سماها "دغل العين" وقد دوت شهرتها في عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية[4].

وقد مضى العرب يعنون – منذ خالد بن يزيد بن معاوية – بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان، وهو ابن صيدلي كوفي، فأرسى هذا العلم

---

١ ألدوميلي ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨.

٢ نالينو ص ١٧٥

٣ ابن أبي أصيبعة ص ١٢٨ – ١٢٩

٤ علوم اليونان لأوليري ص ٢٢٤

على دعائم التجربة وخلف فيه كثيراً من النظريات في الإكسير وخواصه، وصور ذلك في أكثر من مائة رسالة، ترجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جلى مما كان له أكبر الأثر في نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم. وقد تشكك في شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين[1]، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم رداً طويلاً[2]، وهو – دون نزاع – المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب، كما أن الخوارزمي المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية.

وكان ممن عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره[3]، وكان لها تأثير بعيد في نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربي، وأيضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً في علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلي قدوته في كتبه الموسيقية[4].

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شئ من هذا التراث لم ينقل إلى العربية، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات، أو ما اتصل بالملل والنحل. وكانت كل هذه السيول تتجمع في دكاكين الوراقين، ويطلب كل منها ما يجد فيه متاعه.

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول، وقد مضى العقل العربي يسيغها ويتمثلها ويضيف إليها إضافات باهرة، والمتكلمون – وعلى رأسهم المعتزلة – هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها، وقد عرضوها على بساط البحث، واستطاعوا أن

---

١ انظر كتاب جابر ين حيان لزكى نجيب محمود في سلسلة أعلام العرب ص ١٩ وألدوميلي ص ٩٩ ومادة جابر في دائرة المعارف الإسلامية.

٢ الفهرست ص ٤٩٩

٣ الفهرست ص ٣٧٢ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ٢٧١.

٤ إنباه الرواة ١/ ٣٤٣ ومعجم الأدباء ١١/ ٧٣ والمزهر (طبعة الحلبي) ١/ ٨١.

obeikandi.com

ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق.

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً كما أصبح عقلاً علمياً، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر. وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني، مما نراه متحلياً في العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام.

obeikandl.com

٤

العلوم اللغوية والتاريخ

عنى – منذ أواخر عصر بنى أمية – جمهور كبير من العلماء في البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب في الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب في هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التي دخلت في الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا في حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفشو في كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفي يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية في لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تنفى عنها وتطرح شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربي حضري وأن يرحلوا في طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية، وثانيهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التي يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد، ويصور أبو نصر الفارابي صنيعهم في هذا الجانب فيقول: "والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب وفى الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل

الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1]".

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون في نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التي يجمعونها من هنا وهناك ويملئون بها حقائبهم، وعن أبي عمرو بن العلاء شيخ البصرة: "لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية" يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز. وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذي أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة[2]، وأبي سوار الغنوي أستاذ أبي عبيدة[3]، ويسوق ابن النديم أسماء[4] طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب.

وقد تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر، ورأس الجيل الأول في البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقبل سنة ١٥٩ وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أخذت عنهم قراءات القرآن الكريم، وكان حجة ثبتاً صدوقاً، وفيه يقول الجاحظ: "كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس[5]". وأشهر أفراد الجيل التالي له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ وفى تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصاري سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ وكان

---

١ المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/ ٢١١.

٢ الفهرست ص ٦٧

٣ نفس المصدر والصفحة.

٤ الفهرست ص ٦٥ وما بعدها.

٥ البيان والتبيين ١/ ٣٢١.

الأصمعي قفة ثبتاً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة، ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة. وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصب عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح في كتابه "النوادر" في اللغة وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعي درجات في الثقة به إذا كان شعوبياً ذمياً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز في القرآن. وأهم أفراد الجيل الثالث من لغويي البصرة محمد بن سلام الجمحي صاحب "طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين" وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية.

ورأس الجيل الأول من لغويي الكوفة حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالماً بالشعر والغريب غير أنه كان ماجناً فاسقاً زنديقاً، فشاب روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبي معاصره يسقطونها ويزيفونها. وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة في الغريب، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم. وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دستيجان[1] حبراً فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة. ولا يقل عنه شهرة معاصره ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢١٣ وقد رويت عنه دواوين كثيرة، وهو إلى أن يكون في جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون في جيلها الثاني. ومن أهم أفرد الجيل الثالث أبو عبيد القاسم بن سلام، ويقال إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغيب المصنف.

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف في موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المنصفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد،

---

١ الدستيج: إناء

وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى في العربية. وينبغي أن نعرف أن الطريقة الأولى التي تعنى بالجزيئات المفردة ظلت عالية على محاضرات اللغويين طوال القرون: الثاني والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالي القالي.

وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى قواعده ومصطلحاته وصبغها بالصبغة العلمية، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربي والنحو اليوناني أو السرياني، محاولين أن يثبتوا وجوهاً من الصلة بينهما وبين النحو العربي، وكأنه نشأ على هديهما[1]. وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمي العربي الذي استوى على سوقه في القرن الثاني، ودفع دفعاً إلى وضع علوم عربية كبيرة، منها اللغوي ومنها الديني.

وجاء في بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ وشبه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئاً من قواعد النحو، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئاً، إنما الذي وضعه حقاً كان أول واضعيه نقط المصحف نقطاً يعين حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب[2]، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة، وإذا تبع شيئاً من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين، واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله.

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩. أما ابن أبي إسيحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومد القياس وشرح العلل، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب في النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه، زاد فيفه وحشاه. وبعد الخليل بن أحمد المتوفى في سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقي لعلم النحو في صورته النهائية التي أداها عنه تلميذه سيبويه في مصنفه الملقب باسم "الكتاب" وهو في كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره في نحو ثلاثمائة

---

١ راجع في ذلك تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ١٢٤. ونولدكة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، المجلد ٥٩ ص ٤١٤

٢ انظر المحكم في نقط المصاحف لأبى عمرو الداني (طبع دمشق ص ٤ وما بعدها.

وسبعين موضعاً، ويقول السيرافي: "كل ما قال سيبويه: سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[1]" ويقول إنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، ويقول الزبيدي: إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق[2]".

فالخليل هو المؤسس الحقيقي لصرح النحو العربي، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنيانه وأركانه، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما في رفع هذا الصرح إلى عنان السماء – كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيبويه – القياس والعلل، أما القياس فيتضح في ضبطه القواعد واطرادها بحيث تنفى الشواذ، وأما العلل فمقدمات القياس التي تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة.

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس، وأيضاً فإنه كمان يتقن العلوم الرياضية[3]، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات في مسائلهم الفرضية لترسخ ملكة هذه العلوم في عقول الناشئة. وعلى ضوء من هذا الصنيع مد القياس في التصريف والنحو، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض في الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهى ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية. وقد تمثل تمثلاً دقيقاً فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التي هيأت عند الخوارزمي لنشأة علم الجبر، وهى تلاحظ عنده في الميزان الصرفي وفى الخطة التي وضعها لصنع المعجم المعروف باسم "العين" إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نصه في المعجم على الطرفين. وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتب عند الهنود حروف السنسكريتية[4]، وفى ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية في الأصوات، ولعل ذلك ما جعله يعنى بالهمز

---

١ أخبار النحويين البصريين السيرافي (طبعة كرنكو) ص ٤٠.

٢ طبقات النحويين واللغويين الزبيدي (انشر الخانجي) ص ٤٣.

٣ الزبيدي ص ٤٣ وإنباه الرواة ١/ ٣٤٦.

٤ انظر ترجمة الخليل في دائرة المعارف الإسلامية.

obeikandi.com

والتشديد والروم والإشمام[1]. ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية في وضعه لعلم العروض، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط، بل أيضاً من حيث ما وضعه فيه من دوائر، إذا قدمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التي استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كي يجددوا في الأوزان حسب إرادتهم الفنية.

وخلفه على تراثه النحوي سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره في أرجح الأقوال، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم "الكتاب" مضيفاً إليه من أنظاره ما يدل دلالة بينة على فطنته ونفاذ بصيرته. والكتاب يعد آية خارقة من آيات العقل العربي حتى سماه بعضهم قرآن النحو. ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسي: "لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب، أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب أرسطاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شئ إلا منا لا خطر له[2]". وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره، وله في النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة في التكسب بها[3]، وأشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه.

ولم يكن النشاط النحوي منذ أوائل هذا العصر خامداً في الكوفة، فقد كان بها طائفة من النحاة غير انهم لم يبرعوا في النحو براعة البصريين، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم في البصرة بمذهب نحوي خاص بهم بحيث أصبح في النحو مذهبان متقابلان: مذهب البصرة الذي يعنى بالقياس مستمداً له من استعمال العرب الشائع، ومذهب الكوفة الذي يعنى بالسماع ويقدمه على القياس

---

١ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (طبعة مطبعة حجازي بالقاهرة) ٢/ ١٧١.

٢ معجم الأدباء ١٦/ ١١٧

٣ الحيوان ١/ ٩١

مهما كان شاذاً نادراً.

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرواسي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين، وخلفه معاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذي وضع علم الصرف غير أننا نشك في ذلك لأن الصرف مندمج في كتاب سيبويه المتوفى قبله. وأرسخ منه قدماً في الدراسات النحوية الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه، ونراه يشيد بالقياس قائلاً:

إنما النحو قياس يتبع	وبه في كل أمر ينتفع

ويقول بعض البصريين: "لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً، وعمله مختلط بلا حجج ولا علل[١]".

وأهم نحاة الكوفة في العصر الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائي يقدم السماع على القياس، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه، ليحاول تعقبه ومخالفته في بعض ألقاب النحو، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه في كتابه "معاني القرآن" مثل الجحد بدلاً من النفي والتكرير بدلاً من البدل والتفسير بدلاً من التمييز[٢]. وهو الذي جسم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة، وأنه كان يستخدم في كتبه ألفاظ الفلاسفة، ويدل على ذلك كتابه "الحدود" في النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود في المنطق، ومن أهم كتبه "معاني القرآن" وهو يكتظ بآرائه النحوية.

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تسهم مساهمة حقيقية في وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك متحكمة احتكاماً شديداً إلى القياس[٣]، وإلى نظرية العامل التي ينفرد بها نحونا العربي والتي تعد قوامه، وهى تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبي، فمحوره الذي تدور حول بحوثه محور عربي خالص، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية

١ مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوي (نشر مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤.

٢ انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٥١، ٥٢، ٢٢٥.

٣ انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي (طبع القاهرة).

الخصبة التي اكتسبها العرب في العصر العباسي الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعملية.

ومما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التي تؤديها أشعارهم، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ، وهو نمط ارتبط بالسيرة النبوية، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس.

وكانت السيرة النبوية مثبوتة فيما يروى من الأحاديث، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها، وعنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآني وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر، وعنوا أيضاً بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها. وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثه الحربية، ويلمع في هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة، هي المبتدأ والمبعث والمغازي. ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء، ويتضمن المبعث حياة الرسول في مكة، وتتضمن المغازي حياته في المدينة. ولم يصلنا هذا الكتاب[1]، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨.

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازي النبوية في هذا العصر محمد بن عمر الواقدي قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة في الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازي، وقد ضمن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه "الطبقات الكبرى" سيرة مطولة للرسول عليه السلام.

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة في السيرة الزكية أن أخذت تفرد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زبالة المتوفى بعد المائتين، وكتابه الذي خصه بها هو الأصل الذي ألهم العلماء بعده التأليف في تاريخ المدن.

وعنى كثير من المؤرخين بالكتابة في أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة في الفتوح وفى حروب صفين،

---

١ توجد قطعة من هذا الكتاب في مكتبة الرباط العامة بالمغرب.

obeikandi.com

وسيف بن عمر التميمي المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات له في الردة والفتوح ووقعة الجمل، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نشرت له بالقاهرة وقعة صفين.

وصب هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار، وكان مهتماً بالوضع عند معاصريه، ونشر له بالقاهرة كتاب الأصنام. ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخم في أخبار الخلفاء وآخر في الدولة العباسية ومصنفات مختلفة في السيرة النبوية وفى الفتوح وأيما الناس، وهى تعد بالمئات، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم. وأخذت تؤلف في هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوي من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذي أشرنا إليه آنفاً، ومثله كتاب معرفة الرجال ليحيى بن معين المتوفى في سنة ٢٢٣.

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول، فلم تقف عند السيرة النبوية، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب في الجاهلية وفتوحهم ودولهم في الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس، إذ عنى ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة في سير الملوك العجم.

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية في ظلال الحديث النبوي، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أثر عن الصحابة لا في تعاليم الدين الحنيف فحسب، بل أيضاً ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم في تفسير الذكر الحكيم، وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير. وقد أخذ يدون تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يتكاثر التصنيف فيه، وكانوا يوزعونه في مصنفاته غالباً على أبواب الفقه، وأول جيل يلقانا لمصنفيه[1] في هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثورة بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعي بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعيد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥. يتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعاني باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفى سنة ١٩٧.

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس إمام أهل المدينة، وهو مرتب على أبواب الفقه، وفى كل باب أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - المتعلقة به

---

١ انظر في جيلي مصنفي الحديث للشماليين خطط المقريزي ٤/ ١٤٣ وإحياء العلوم للغزالي ١/ ٧٩ وقوت القلوب ص ٢١٦ والفهرست ص ٣١٤.

وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه. وقد ظل يمليه على طلابه نحو أربعين عاماً، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه، ولذلك اختلفت رواياته، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلس المتوفى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقاني وشرحه مطبوع.

وأخذت تقترن في أواخر القرن الثاني بالطريقة السالفة في تصنيف الحديث طريق جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث في مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة، وهى الطريقة المعروفة باسم "المساند" إذ يسند المؤلف لكل صحابي ما روى عنه من الأحاديث، وممن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضي البصري المتوفى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسي المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع. وأشهر المصنفات في هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع في ستة أجزاء ضخام.

وبجانب الطريقتين السالفتين في تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزع فيها الأحاديث على المعاني والموضوعات التي تتصل بها فقهية وغير فقهية، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقريزي: "تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف[1]" واتبع طريقته في العصر العباسي الثاني البخاري وغيره من أصحاب الصحاح الستة.

وأخذ المحدثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة، مما أدى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح، وهو علم محص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس، وأهم من بدأ التصنيفغ فيه – كما أسلفنا في غير هذا الموضع – محمد بن سعد ويحيى بن معين. ومن العلوم التي نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة، وقد ألف فيه كثيرون من لغويي[2] هذا العصر وعلى رأسهم أبو عبيد القاسم بن سلام.

---

١ خطط المقريزي ٤/ ١٤٣.

٢ الفهرست ص ١٢٩

وإذا تركنا التصنيف في الحديث إلى التصنيف في تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تمتد مما أثر عن الرسول صلى الله وسلم وعن الصحابة وخاصة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات[1]، وتولاها العلماء بالجرح والتعديل، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه، وقد أجمعوا على صحة ما دونه على بن أبي طلحة المصري عن ابن عباس، وفى ذلك يقول ابن حنبل: "بمصر صحيفة في التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً"[2]. ومن أهم المفسرين في هذا العصر بتلك الطريقة التي تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عينية وعبد الرحمن بن زيد ابن اسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبي شيبة. وقد ضاعت كتبهم هم ومن سبقهم غير أن الطبري احتفظ في تفسيره الكبير بكل هذه الثروة المأثورة الغنية.

وقد أخذ الشيعة يستقلون – منذ هذا العصر – بتفاسير القرآن خاصة بهم، لعل أهمها تفسير[3] جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨، إن صحت نسبته إليه. ونشط المعتزلة في كتابة تصانيف عن المتشابه في القرآن على نحو ما يروى عن بشر[4] بن المعتمر وأبي الهذيل[5] العلاف، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التي قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول[6] تفسير اعتزالي.

ونشأت بجانب التفسير – لهذا العصر – علوم قرآنية كثيرة، أحصاها ابن النديم إحصاءاً دقيقاً، ذاكراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم[7]، وهى علم نقطة وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل في العربية، وقد أخذه من صور حروف العلل

---

١ الفهرست ص ٥٠

٢ الإتقان للسيوطي (طبع مطبعة حجازي) ٢/ ١٨٨

٣ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٣/ ٣٤٣.

٤ الفهرست ص ٥١

٥ الفهرست ص ٥٥

٦ انظر مذاهب التفسير الإسلامي تسهير (نشر الخانجي) ص ١٣٥.

٧ الفهرست ص ٥١ – ٥٧

الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة[1]. ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء في آياته، وممن ألفوا فيه الفراء، وعلم غريبة وممن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحي وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعلم لغاته وممن صنفوا فيه الأصمعي وأبو زيد الأنصاري، وعلم معانيه وممن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة، وعلم قراءاته وممن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعلم ناسخه ومنسوخه وممن صنفوا فيه أحمد بن حنبل، وعلم أحكامه وممن صنفوا فيه الشافعي ويحيى بن أكثم صفى المأمون وقاضيه.

وازدهرت دراسات الفقه في هذا العصر ازدهاراً عظيماً، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنّة يهتدي به في فتواه، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلي، ومنهم من كان يتسع في الاستنباط والقياس الشديد على ضوء الإسلام وتعاليمه، ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سموا أهل الرأي، وسرعان ما تحول الاتجاهان في هذا العصر إلى مذهبين واضحين في الفقه والتشريع: مذهب أبي حنيفة في الكوفة والعراق ومذهب مالك في المدينة والحجاز، وينفذ الشافعي من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامة بغداد.

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسي، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتثقف بالدين والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه في الفقه والرأي، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة، كما كان يعتمد على القياس العقلي اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولاً للأحكام الكثيرة التي تطلبتها المشاكل التي نشأت في حياة الناس من الجبهتين الدينية والدنيوية، ويقال إنه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً في العبادات والبقية في المعاملات. وإلى دقته في استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول[2]:

---

١ المحكم في نقط المصاحف ص ٧

٢ أغاني (طبعة الساسي) ١٦/ ١٦٣ وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/ ٧٧ وعيون الأخبار لابن قتيبة

إذا ما الناس يوماً قايسونا بآبدة من الفتيا ظريفة

أتيناهم بمقياس طريف مصيب من قياس أبي حنيفة

ونهض من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذي انتشر به مذهب أبي حنيفة في العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية، إذ كان قاضي القضاة في عهد الهادي والرشيد وكان لا يولى على أي بلد قاضياً إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه[١]، وله في الخراج كتاب مشهور مطبوع، وهو أول من ألف في علم الحيل[٢] وهو علم يفتح بفتاويه المنثورة فيه المنافذ لكي يخرج منها من يقع في حرج. وانتهت رياسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيباني الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ وكان قد سمع أبا حنيفة وتتلمذ له، كما سمع مالك بن أنس والأوزعي فقيه الشام، وممن أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل، وهو الذي حرر المذهب الحنفي بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير، وقد نوه ابن جنى بدقة استخدامه للعلل في كتبه[٣]. وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل في صياغة الفقه الحنفي ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة.

وكان يقابل هذا المذهب العراقي مذهب مالك بن أنس في الحجاز، على نحو ما يمثله كتابه "الموطأ" الذي تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذي تعرض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوي والآثار عن الصحابة والتابعين. ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أداه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم "المدونة الكبرى" ونشره ببلاد المغرب. وتلقى المذهب عن مالك أيضاً يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبي حنيفة إذ كان مقدماً عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضياً إلا من أصحابه المالكية.

٢/ ١٤٠.

١ انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/ ١٦٤.

٢ الحيوان ٣/ ١١

٣ راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية) ١/ ١٦٣.

obeikandi.com

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعي محمد بن إدريس المولود بغزو سنة ١٥٠ والمتوفى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث، وفى سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكاً إلى أن توفى، فرحل إلى اليمن واتهم باشتراكه في ثورة لبعض العلويين، فأرسل به إلى الرشيد وعفا عنه وانتهز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيباني وناظره طويلاً، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذي يجمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على القياس. وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التي سادت في مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذا استطاع أن يضع في كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة، وفيه حرر المناهج في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس. وهو بذلك يقف علماً في تاريخ الفقه الإسلامي، يقول الرازي: "واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض.. فإن الناس كانوا قبله يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي – رحمه الله – علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطاليس إلى علم العقل[1]". وعاد الشافعي إلى العراق في سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته. وحمل عنه مذهبه في مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البويطي المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

وأكبر تلامذة الشافعي في العراق أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهي جديد يعلى من شأن الحديث إلى أبعد

غاية، وبذلك عد ممثلاً لأهل السنة، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كتب للمذاهب الثلاثة السالفة وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين.

وكان للشيعة في هذا العصر نشاط مستقل في الفقه، إذ ينسب للإمام العلوي جعفر الصادق

---

١ مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١٠٠

كتب مختلفة فيه مثل كتاب "مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة" المطبوع في طهران وثل كتاب "فقه الرضا" لعلى الرضا وحفيده وهو كسابقة مطبوع بطهران.

ولعل علماً لم يزدهر في هذا العصر كعلم الكلام، ويراد بالكلام الجدل الديني في الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم، بل عند جميع الملل والنحل، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق[1]، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين[2]، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المنانية الثنوية القائلين بإلهي النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة[3]. وقد مضى كل متكلم مدافع عن عقيدة في هذا العصر يتسلح في دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ: " ولا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة[4]".

وأهم فرق المتكلمين في هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة أمام المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمانويين الثنويين. وقد ملئوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء. ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثاني إلى بغداد، فخلبوا الألباب هناك ببيانهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة، وإذا المأمون يعتنق عقيدتهم، حتى شعبة خلق القرآن التي دلع شررها بشر المريسي كما مر بنا، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة.

ولعلنا على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذي

---

١ الفهرست ص ٢٩ – ٢٥٢

٢ ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠

٣ الفهرست ص ٣٣٨

٤ الحيوان ٢/ ١٣٤

ارتكبه أصحابه، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق. ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وان مرنها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة في الاستنباط لخفيات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريعها وتشعيبها وتوليدها، مع القياس الناصع والبرهان الساطع. وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر العباسي، إذا أكب الناس على مناظراتهم وأكب معهم الشعراء، بل قلما نجد شاعراً نابهاً في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاحقي والعتابي ومنصور النمري وأبي تمام.

واختلف الباحثون في سبب تسميتهم معتزلة، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصري ومجالسه، وقيل بل يرجع إلى سريان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس، ورجح نالينو أنهم نعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة، فقد وقفوا على الحياد لا ينصرون فريقاً على فريق[1]، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالاً عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين، ولذلك احتضنهم العباسيون. واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر في زيد بن على بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية.

وتميز الاعتزال بأصول خمسة، هي التوحيد والعدل، والوعد والوعيد، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان، وقد أولوا الآيات التي يفهم منها مشابهته للمخلوقات من مثل: (يد الله فوق أيديهم) فمعنى اليد في الآية عندهم القدرة، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدد القديم جل جلاله، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يظن أنه قديم، ولا قديم

---

١ أنظر التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوي ص ١٧٣ وما بعدها.

سوى الله.

أما العدل فقد مضوا يؤصلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار في إرادتهم، وهي حرية ضرورية لكي يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة، وقد أولوا الآيات التي تدل على الجبر من مثل: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم.

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأناب، وهو لابد مدخل الأتقياء الجنة حسب وعده الذي وعده، ومدخل العصاة النار حسب إبعاده الذي أوعده.

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأي الحسن البصري القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه في منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر. وبذلك لم ينتصروا – كما يقول نالينو – لطرف من طرفي هذه الخصومة.

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته، وكان ينبغي وهم يعتنقون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدي المجان والفسّاق وأرباب الدعارة، وأيضاً كان ينبغي أن يصرخوا في وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام في الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هي حق الأكفاء من أبناء الأمة.

وقد أدّاهم النظر في الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة في العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد في الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية. وتجردوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدي والفكري عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالمجوس والصابئة.

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هو مؤسس فرقتهم كما قدمنا، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلتي الإيمان والكفر[١]، وكان يكترث من جدال أصحاب الملل والنحل. وخلفه على آرائه ختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال في عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية[٢] الإرادة. وقد مضى تلاميذه في البصرة يفرعون في مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثمامية والهذيلية والنظامية.

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال، وكان يقول بتفضيل على بن أبي طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد، وله أشعار كثيرة نظمها في التاريخ الطبيعي وفى أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها. وهو أول[٣] من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يرمى فيحطم زجاجً، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً في تحديد المسئولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره. وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة في فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه، وإنما الذي عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة.

والثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النميري البصري المتوفى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد، وكان يقول هو الآخر بتفضيل علىّ على الصحابة، كما كان يقول بخلق القرآن، وأكبر الظن أن بشراً المريسي هو الذي أقنعه بذلك. وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين في مجالسه. وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها[٤] وأن المعارف كلها ضرورية وان الحسن والقبح ذاتيان في الأفعال، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم في الأوامر والنواهي الإلهية.

---

١ انظر أمالي المرتضى ١/ ١٦٥ والشهرستاني ص ٣١

٢ أمالي المرتضى ١/ ١٦٩ وضحى الإسلام ٣/ ٩٧.

٣ الشهرستاني ص ٤٤ وضحى الإسلام ٣/ ١٤١

٤ الشهرستاني ص ٤٩ وضحى الإسلام ٣/ ٢٤٧.

والهذيلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاف المتوفى بسامراء لسنة ٢٢٧ وقيل: بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عمر طويلاً، ويعد المؤسس الحقيقي للاعتزال. وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية[١]. وفرق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح. وتحدث في مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ومسألة الكمون ككمون النار في الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية.

والنظامية نسبة إلى النظام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستاني إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهين، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده، وإن إرادته التي يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء. وكان ينفى الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ[٢]. وأعلى في مباحثه سلطان العقل إعلاء بعيداً.

١ الشهرستاني ص ٣٤ وأمالي المرتضى ١/ ١٧٨ وضحى الإسلام ٣/ ٩٨ ودي بور ص ٥٧.

٢ الشهرستاني ص ٣٧ وضحى الإسلام ٣/ ١٠٦ ودي بور ص ٥٩.

obeikandl.com